

قاسم أمين وتحرير المرأة: جرأة الخطاب وتفكيك سلطة التجهيل

—دراسة عرفنية—

Qasim Amin and The Liberation of Woman: The Boldness of Discourse
and the Deconstruction of Obscurantist Power
— A Cognitive Study



أ. بوبكر عربي *

جامعة محمد بوقري — بومرداس، الجزائر.

bo.aribi@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2025/09/15 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النشر: 2025/12/16

ملخص: تسعى الدراسة إلى تحليل خطاب قاسم أمين في: "تحرير المرأة" من منظور الاستعارة العرفنية، قصد الكشف عن الكيفية التي أسهمت بها الاستعارة في تشكيل صورة المرأة وبناء وعي إصلاحي جديد. فالاستعارة هنا ليست مجرد أداة بلاغية، بل هي آلية معرفية تمكّن من ربط قضايا مجردة مثل الحرية والتعليم بمجالات محسوسة كالنور والمرأة والجسد.

وبعد تحليل الاستعارات الاجتماعية والدينية والسياسية، تبين أنّ قاسم قدّم خطاباً إصلاحيًا متماسكاً استطاع أن يجعل قضية المرأة محوراً في مشروع النهضة العربية. وبذلك يبرز الدور الحيوي للاستعارة في إنتاج خطاب فكري قادر على الإقناع والتأثير، يتجاوز حدود الدعوة المباشرة إلى مستوى التأسيس المفهومي لرؤية جديدة للمجتمع.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة العرفنية، قاسم أمين، تحرير المرأة، الخطاب الإصلاحي.

Abstract: This paper examines Qasim Amin's The Liberation of Woman through the lens of cognitive metaphor theory. It argues that metaphor functions not merely as a stylistic ornament but as a conceptual

* المؤلف المراسل

tool that links abstract notions such as freedom and education to concrete domains like light, the mirror, and the body.

The analysis of social, religious, and political metaphors reveals a coherent reformist discourse that placed the woman question at the core of the Arab Nahda project. Ultimately, the study underscores the central role of metaphor in shaping a persuasive intellectual framework that grounds a renewed vision of society.

Key words: cognitive metaphor, Qasim Amin, The Liberation of Woman, reformist discourse.

مقدمة: تشكّل الاستعارة العرفية إحدى أهم الأدوات التي تمكّن الباحث من النفاذ إلى البنية العميقة للخطاب، فهي ليست مجرد زينة بلاغية أو صورة أسلوبية كما كان يُنظر إليها في التصوّرات البلاغية التقليدية، بل هي - وفق المقاربة العرفية الحديثة - آلية معرفية أصيلة يعبر بها الإنسان عن خبراته، ويبنى من خلالها تصورات عن العالم. وإذا كان الإصلاح الفكري والاجتماعي في العالم العربي قد ارتبط بظهور خطاب نهضوي يتطلع إلى إعادة صياغة علاقة الفرد بذاته ومجتمعه، فإنّ الاستعارة تصبح مدخلاً فعّالاً لفهم الكيفية التي سعى بها رواد النهضة إلى إقناع المتلقّي وتحريك وعيه.

وفي هذا الإطار يندرج كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين (1899)، الذي عُدّ أحد أبرز النصوص التأسيسية في الخطاب الإصلاحي العربي الحديث. فقد أثار منذ صدوره جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية والاجتماعية والدينية، لما تضمنه من دعوة صريحة إلى إعادة النظر في وضعية المرأة وتعليمها ومشاركتها في الحياة العامة. والواقع أنّ هذا الكتاب لا يمكن قراءته فقط بوصفه بياناً إصلاحيّاً اجتماعيّاً، بل بوصفه خطاباً غنيّاً بالاستعارات التصويرية التي صاغ بها قاسم أمين مشروعه الفكري، محاولاً من خلالها ربط قضايا المرأة بنهضة الأمة بأسرها.

ومن هنا تنبثق الإشكالية التي يحاول هذا المقال مقاربتها :

- كيف تسهم الاستعارة المفهومية في بناء صورة المرأة وإعادة تحديد موقعها في

المجتمع عند قاسم أمين؟

القضية ليست مجرد مطالبة بحقوق أو دعوة إلى مساواة، بل هي إعادة تشكيل لمفاهيم مركزية مثل: التعليم، الحرية، النهضة، الأمة، عبر شبكة من الاستعارات التي جعلت خطاب قاسم أمين أكثر إقناعاً وتأثيراً.

ولتحقيق ذلك، نعتمد مقارنة عرفانية تستند إلى ما بلوره جورج لايفوف ومارك جونسون في كتابهما المرجعي (1980) *Metaphors We Live By*، حيث قدّما تصوّراً جديداً للاستعارة باعتبارها نسقاً مفهوماً ينقل عناصر من مجال محسوس (المجال المصدر) إلى مجال مجرد (المجال الهدف). وسنقتصر على توظيف هذا الإطار بصورة عملية لتفكيك أهم الاستعارات التي اعتمدها قاسم أمين في تحرير المرأة، دون الدخول في تفاصيل نظرية معقّدة أو استعراض للدراسات السابقة، انسجاماً مع طبيعة هذا المقال وحجمه.

بهذا التوجه، نسعى إلى إظهار كيف أنّ قاسم أمين لم يكتفِ بخطاب مباشر وصريح، بل استعان باستعارات عرفانية مكثفة جعلت أفكاره الإصلاحية أكثر رسوخاً في الوعي الجمعي، وأسهمت في إعادة بناء صورة المرأة كفاعل مركزي في مشروع النهضة العربية.

المبحث الأول: الجانب النظري

المطلب الأول: تمهيد.

تقوم الرؤية العربية الكلاسيكية للاستعارة على استحضار أصلها اللغوي المتمثل في فعل (استعار) بمعنى طلب العارية، وهو ما جعل البلاغيين ينظرون إليها باعتبارها شكلاً من أشكال الاقتراض بين الألفاظ ذات الصلة الدلالية. ومعنى «ذلك أن الاستعارة أساسها التشبيه غير أنها تمتاز عنه بالمبالغة والاغراق في التخيل، فإننا ندعي المشبه به هو عين المشبه به، ولا نرى أن هذا يشبه ذلك ولكننا ندعي أنه هو بناء على تخيل اتحادهما في الحقيقة، وأيضاً إذا قلنا مثلاً: رايت حاتماً، نريد شخصا كريماً، فإننا نلاحظ قوة الشبه وهو (الكرم في المشبه) ثم يذهب خيالنا أبعد من هذا فنُدعي أن هذا الشخص لا يشبه حاتماً ولكنه حاتم»¹ ولهذا كانت الاستعارة قائمة على الادعاء. وقد انعكس هذا

المنطلق على التصورات النقدية، إذ أُسقطت بعض أنماط العلاقات الاجتماعية على الظاهرة اللغوية ذاتها، فكما أن العارية لا تجري إلا بين طرفين تجمعهما معرفة سابقة، كذلك «الاستعارة لا تتم الا بين كلمتين بينهما سبب معرفة»² ومن هنا جاء تعريف الاستعارة بأنها فرع مأخوذ من العارية الحقيقية، «ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئاً، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر وهذا الحكم جار في استعارة الألفاظ بعضها من بعض.» وهذا يبرز كيف انتقلت المفاهيم الاجتماعية (المعرفة، الاقتراض، المعاملة) إلى مستوى التحليل البلاغي لتفسير طبيعة العلاقات بين الألفاظ المستعملة في السياق الاستعاري.

وقد ظلّ مفهوم النقل في صميم تصوّر النقاد للاستعارة، على الرغم من اختلافهم في مقاربتها وتفسيرها. فقد عُرِّفت بوصفها انتقالاً دلاليّاً للكلمة من مجالها الأصلي إلى مجال جديد يضيف عليها معنى مغايراً ويُعدّ المثل التقليدي «رأيت أسداً» تجسيداً واضحاً لآلية النقل الدلالي، حيث لا يُراد باللفظ معناه الحيواني المباشر، بل يُستثمر في مجال الحرب ليشير إلى الشجاعة. غير أنّ هذا النقل ليس اعتباطياً، بل يقوم على علاقة معرفية تقوم على تطابق جزئي بين المجالين: فكما يتسم الأسد بالقوة والإقدام في مجال الطبيعة، كذلك يُسند للمحارب في مجال الحرب رصيد من الصفات المماثلة، وعلى رأسها الشجاعة التي تُعدّ ركيزة أساسية في بناء مفهوم الحرب ذاته. وبذلك فإن الاستعارة لا تكتفي بمنح معنى بديل، بل تعيد تشكيل البنية الإدراكية للمتلقي، عبر تفعيل شبكة من العلاقات التصويرية والوظيفية التي لا يقدر عليها التعبير المباشر.³

إنّ الاهتمام المتزايد بالاستعارة يعكس تداخلها مع تحولات معرفية متعددة. فالفلسفة الموضوعية التي هيمنت على الدراسات اللسانية ردحاً من الزمن رسّخت فهمًا ضيقاً يحصر الاستعارة في بعدها اللغوي بوصفها إحلالاً لفظياً قائماً على التشابه. غير أنّ النظريات التي أولت العناية ببعدها الجمالي أفضت إلى ظهور نظرية التفاعل، التي

تجاوزت هذا الفهم لتبرز أثر الاستعارة في المتلقي. أما التحليل النقدي للخطاب فقد أبرز دورها في تشكيل الوقائع الاجتماعية وتوجيه صراع القوى حول السلطة من خلال استراتيجيات لغوية تعزز مواقعها الرمزية. ومن ثمَّ فإنَّ تطوُّر العلوم الإنسانية يقترن دومًا بإعادة النظر في الاستعارة وفق مقاربات متعدّدة، لا ينبغي اعتبارها متناقضة، بل متكاملة، إذ يضيء كل منها جانبًا من ظاهرة معقدة ومتعددة الأبعاد.

المطلب الثاني: الاستعارة المفهومية في ضوء النظرية العرفية.

تُعد النظرية العرفية للاستعارة (Cognitive Metaphor Theory) من أهم التحوّلات في فهم الاستعارة؛ إذ لم تعد تُحصَر في نطاق البلاغة أو الصورة، بل أصبحت آلية معرفية مركزية في بنية الفكر الإنساني. يؤكد جورج لايكوف ومارك جونسون في كتابهما؛ الاستعارات التي نحيا بها (Metaphors We Live By) (1980)؛ أنّ الاستعارات ليست مجرد زينة لغوية؛ بذلك فهي ليست مظهرًا لغويًا صرفًا، بل تكون مظهرًا ثقافيًا عامًّا تتأثر به اللغة كما تتأثر به سائر المظاهر الأخرى مثل السلوكات والأنشطة التي نباشرها. ومنه تعدّ الاستعارة «آليات ذهنية أساسية» تشكّل مفاهيمنا وتوجّهاتنا تجاه العالم.⁴

في الفصل الأول، يُوضح الكاتبان أن النظام التصوري الذي نفكر به ونتصرّف من خلاله هو بطبيعته استعاري، حيث «أن جزءا هاما من تجاربنا وسلوكاتنا وانفعالاتنا استعاري من حيث طبيعته. وإذا كان الامر كذلك، فإن نسقنا التصوري يكون مبنياً جزئياً بواسطة الاستعارة وبهذا لن تكون الاستعارات تعابير مشتقة من حقائق أصلية، بل تكون هي نفسها عبارة عن حقائق بصدد الفكر البشري والنسق التصوري البشري.

فالاستعارات الوضعية؛ من اتجاهية وبنوية وأنطولوجية، عبارة عن حقائق مثبتة في نسقنا التصوري، تجعلنا ندرك العالم من حولنا ونمارس فيه تجاربنا بشكل استعاري، إننا نجعل الناس في مقام مستفل ونجعل أنفسنا في مقام عال، إذا كنا نراقبهم أو نتحكم فيهم (وهذه استعارة اتجاهية توظف البعد الفضائي فوق - تحت)، وبنبي نوعا من الوجود

المادي للتضخم مثلاً، فيكون عدواً نحاربه أو نتضايق منه (وهذه استعارة أنطولوجية)، كما نعامل الزمن كما لو كان مالا حقاً، فنضيعه أو نستثمره أو نبذره (وهذه استعارة بنيوية إذ نسحب بنية الزمن على المال فتحدث عن الأول بالفاظ الثاني).⁵

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي

المطلب الأول: الفضاء التصوري والاتجاهات المفهومية في خطاب قاسم أمين.

يقوم الخطاب الإصلاحي عند قاسم أمين في كتابه: (تحرير المرأة) على جملة من الاستعارات التصويرية التي تجعل من المفاهيم المجردة (كالحرية، التقدم، الإصلاح) كيانات ملموسة تُدرك من خلال فضاءات واتجاهات مكانية. بحكم أنها استعارات اتجاهية ليست اعتباطية، حيث «توجد مرتكزاتها في تجربتنا الفيزيائية والثقافية، ورغم أن التقابلات الشائبة بين فوق وتحت أو بين داخل وخارج... إلخ لها طبيعة فيزيائية فإن الاستعارات الاتجاهية التي تنبني عليها قد تختلف من ثقافة إلى أخرى. لأنه «أي ثقافة إنسانية لا تمضي في يسر، لأنها متجذرة في العقول والأجساد، تبقى تقاوم تحت رداء الثقافة المهيمنة»⁶ ففي بعض الثقافات، مثلاً، (يوجد المستقبل أماناً) في حين أنه في ثقافات أخرى (يوجد خلفنا)⁷ وهنا يبرز دور الثقافة اللغوية في إبراز الاستعارة ودورها. وهنا يلعب الفكر دوراً بارزاً في تحديد مسار واتجاهات الاستعارة على اختلاف الثقافة اللغوية، ولهذا وبحسب رأي جورج لايكوف ومارك جونسون، أن اللغة ليست مجرد أداة للتعبير بل هي أداة للتفكير ذاتها، إذ نحن نفكر في مفاهيمنا المجردة عن طريق الاستعارة؛ والتي قد تتنوع إلى أشكال مختلفة؛ (اتجاهية، انطولوجية، بنيوية)...

انطلاقاً من هذا التصور، يمكن رصد بنية الفضاء التصوري في خطاب (قاسم أمين)، حيث تتجلى الحرية في صورة مكان مفتوح للرأي والفكر، ويتخذ التقدم هيئة حركة إلى الأمام، بينما يتموضع الجهل في مجال مظلم ومنحدر. هذه الصور الاستعارية ليست مجرد تزيينات بل هي أدوات حجاجية تعكس رؤية إصلاحية متجذرة في صميم مشروع أمين النهضوي.

بناءً على ذلك، سنحاول الكشف عن هذه الاستعارات المكانية والاتجاهية عبر عناوين فرعية توضّح كيف صاغ أمين مفاهيمه الإصلاحية ضمن شبكة تصوّرية متكاملة.

المطلب الثالث: الحرية فضاء مفتوح للرأي والفكر.

في مفتتح كتابه؛ "تحرير المرأة" يوظّف قاسم أمين صورة مجازية تجعل من الحرية مجالاً لا تحدّه قيود، حيث تصبح بمثابة فضاء يحتمل التعدد والاختلاف، وهو ما يمنح الخطاب طابعاً إصلاحياً وتقدمياً. حيث يقول: «الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.»⁸

يُصوّر قاسم أمين في هذا التصدير الحرية بوصفها فضاءً رحباً يتيح التفكير وتبادل الآراء، غير أنّ هذه الحرية تبقى منضبطة بسياق المجتمع الذي تُمارس فيه، حتى لا تنفلت من ضوابطها فتستند إلى أسس هشّة تُقوّض منظومة القيم وتحوّل الحرية ذاتها إلى أداة هدم. ويمكن - في إطار التمثيل التحليلي لا على أنه قول لقاسم أمين - الاستدلال بما نراه في المجتمع الأمريكي المعاصر، حيث أدّت ممارسة الحرية المطلقة، مع تراجع القيم الأخلاقية والاجتماعية، إلى تفكك الروابط العائلية وتلاشي السلطة الأبوية⁹. ويقدم قاسم أمين من خلال هذا التصوير الحرية في هيئة فضاء مفتوح يتّسع للأفكار والآراء. هنا يشتغل العقل العرفاني بآلية الاستعارة التصويرية، حيث يُبنى المفهوم المجرد (الحرية) عبر إسقاطه على مفهوم محسوس (الفضاء). فالحرية لا تُقدّم كقيمة تشريعية أو أخلاقية فحسب، بل كحيز مكاني يتّسع للحركة والتفاعل. ويمكن أن نجد لهذا التصور نظيراً في ما أورده جورج لايكوف ومارك جونسون، حيث يوردان... «إننا نفهم المفاهيم المجردة (كالحرية) عبر استعارات مكانية، حيث تُبنى في أذهاننا على أنها فضاءات نتحرك فيها.»¹⁰

إذن، الاستعارة هنا لا تكتفي بوصف الحرية، بل تبرّر وظيفتها الاجتماعية: إتاحة التعددية الفكرية، وفتح المجال للحوار، مما يضع خطاب (قاسم أمين) في قلب النقاش الحداثي.

المطلب الثاني: التقدم كحركة نحو الأمام.

إذا كانت الحرية قد سُبِّهت بفضاء مفتوح يسمح بتعدد الرأي، فإن التقدم في خطاب النهضة النسوية العربية يُصاغ استعارياً كحركة إلى الأمام، أي كمسار زمني خطّي ينقل المجتمع من حالة التأخر إلى حالة الرقي. وقد رسّخت الحركة النسوية في مصر هذا التصور من خلال ربط المكتسبات المتراكمة بمسار تقدّمي مستمر، وكأنها خطوات متعاقبة في طريق طويل يقود إلى أفق التحديث.

«وواصلت هدى الشعراوي على مستوى مصر بكاملها بتنصيب اللجان إلى أن أسست الاتحاد النسائي المصري (...) ونتيجة مساهمة الوسط النسائي البورجوازي حققت الحركة النسوية العديد من المكتسبات نذكر منها؛ منع زواج المرأة قبل سن السادسة عشر، حق المرأة في التعليم الثانوي، واجبارية التعليم الابتدائي، وحقها في التعليم العالي (...) وحقها في الانتخاب، والعديد من المكتسبات على غرار مكتسبات المرأة الأوربية، من أهمها تقنين عمل المرأة في القطاعين الصناعي والتجاري (...) حتى أنه في سنة 1935 عينت امرأة مصرية في منصب مفتشية العمل.»¹¹ وهنا نجد أن قاسم أمين يؤمن إيماناً جازماً بأن؛ «عمل المرأة يضاعف من الأدوار الاجتماعية (...) أما المرأة في المجتمع الصناعي فهي تشغل دورين اجتماعيين متكاملين هما دور ربّة البيت ودور الموظفة خارج البيت.»¹²

ومن هذا المنطلق نلاحظ أن قاسم أمين يقدم نصه كصورة للحركة النسوية المصرية على أنها رحلة إصلاحية تتحرّك إلى الأمام عبر خطوات متدرجة من المطالبة بالحقوق إلى تحقيقها. هنا تتجسد الاستعارة التصويرية: (التقدم هو حركة إلى الأمام PROGRESS IS FORWARD MOVEMENT. فالمكتسبات (منع زواج القاصرات، الحق في التعليم، الحق في الانتخاب...) تُصوّر كمحطات على طريق يفتح آفاقاً جديدة، وهذا ما يتطابق مع ما ذكره جورج لايكوف ومارك جونسون في أن المسار الزمني يُفهم مجازياً باعتباره خطأً مستقيماً يتجه نحو الأمام، حيث المستقبل أماننا والماضي وراءنا.¹³

كما نجد عند الفيلسوف بول ريكور أن «الزمن السردي يوجّه الوعي نحو المستقبل كأفق انتظار، يجعل من التاريخ حركةً متواصلة نحو إمكانات جديدة».¹⁴ إذن، النص لا يكتفي بسرد منجزات الحركة النسوية، بل ينسجها داخل مسار تقدمي يُبرز أن الإصلاح الاجتماعي يُبنى تدريجيًا بحركة مستمرة إلى الأمام، مما يعكس دينامية النهضة المصرية في مطلع القرن العشرين.

المطلب الثالث: الفكر مكان داخلي والفكرة ككائن حيّ.

من أبرز الاستعارات التي وظّفها قاسم أمين في مطلع تحرير المرأة تلك التي تتصل بتمثيل الفكر باعتباره فضاءً داخليًا تُخزّن فيه الأفكار، وبتمثيل الفكرة نفسها ككائن حيّ يملك قوة الحضور والمزاحمة والتغلب. هذه الاستعارات تكشف عن طبيعة الإصلاح في تصور أمين، حيث لا ينبع من مجرد ترفّ نظري، بل من صراع داخلي للفكر، تتحرك فيه الفكرة وتفرض ذاتها حتى تُستخرج إلى حيّز الدعوة العلنية. حيث يقول قاسم أمين ما مفاده:

«إني أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معي في حالة النساء المصريات وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التي وصلت إليها وهي ضرورة الإصلاح فيها. هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وامتحنها وأحللها حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلي بورودها وتنبهني إلى مزاياها وتذكرني بالحاجة إليها فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر».¹⁵

يقدم قاسم أمين هذا النص في مطلع كتابه، ليكون نصًا تتزاحم فيه الكثير من الاستعارات التي تنم على شتات من الأفكار المتزاحمة التي تثير قلقًا داخل ذهن الكاتب، بحكم أهمية الموضوع الذي يعالجه. وقد نستخلص من النص ثلاث استعارات مفهومية كبرى:

الفرع الأول: العقل وعاء / الفكر مكان داخلي.

يستعمل قاسم أمين عبارة: «مكان عظيم من موضع الفكر» ليؤسس صورة مجازية للعقل باعتباره فضاءً داخلياً تُودع فيه الأفكار. هذه الصورة تنسجم مع ما أبرزه لايكوف وجونسون في كتابهما المرجعي *Metaphors We Live By*، حيث صنفا العقل ضمن استعارة تصويرية تقوم على مبدأ: العقل وعاء (THE MIND IS A CONTAINER)، بحيث تُصوّر الأفكار كأشياء تدخل وتخرج أو تُخزّن داخله.¹⁶ وهو ما يتقاطع مع التراث العربي القديم؛ باعتباره يمثل «كل الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات...»¹⁷ فقد شبه ابن سينا العقل بـ «قوة مودعة للصور والمعاني»¹⁸ واعتبر الغزالي القلب «كالحصن تتناوب عليه الخواطر»¹⁹ كما ذهب أحمد مطلوب إلى أن الاستعارة المكانية من أكثر الصور البلاغية التصاقاً بالفكر العربي القديم، حيث كان العقل يوصف بالحفاظة والوعاء.²⁰ إنّ هذا التداخل بين القديم والحديث يؤكد أن الاستعارة المكانية للعقل ليست مجرد آلية بلاغية، بل هي جزء من بنية إدراكية عابرة للثقافات، تُحوّل المجرد (الفكر) إلى الملموس (المكان)، وهو ما يمنح الخطاب بعداً معرفياً وجماليّاً في آن واحد.

الفرع الثاني: الأفكار كائنات حيّة.

تُجسّد استعارة (الأفكار كائنات حيّة) بعداً دلاليّاً بارزاً في خطاب قاسم أمين، حيث يصف الحقيقة بأنها «تزاحم، تتغلب، تنبّه، تذكر»، وهي أفعال تُسند عادةً للكائنات الحيّة لا للمجردات، بما يمنح الفكر ديناميّة وجودية تضغط على المفكر وتدفعه نحو القول أو الفعل. وقد صاغ لايكوف وجونسون هذه الاستعارة ضمن ما أسماه الأفكار ككائنات حيّة (IDEAS ARE LIVING BEINGS)، حيث تُصوّر الأفكار تارةً كأشخاص وتارةً كنباتات؛ فهي قد «تناسل» أو «تموت في مهدها» أو «تظل حيّة».²¹ ويمضي بول ريكور في الاتجاه ذاته، مؤكداً أنّ «الأفكار لا تبقى محايدة في الوعي، بل تتحوّل إلى قوى تفرض على صاحبها قولاً أو فعلاً»²² أما في التراث العربي،

فقد شبه الجاحظ المعاني بالنبات قائلاً: «المعاني تنتج كما تنتج الطبيعة نباتها، وأن المعارف تتحرك في النفس كما تتحرك الحياة في الجسد.»²³ ويضيف أحمد مطلوب أن «يجعل العقل فضاءً فاعلاً تتحرك فيه القوى الفكرية.»²⁴ يتضح من ذلك أن استعارة الأفكار ككائنات حيّة لا تقتصر على الجانب البلاغي، بل تكشف عن بُعد معرفي-وجودي يجعل الفكر قوة حيّة متفاعلة داخل الذهن والواقع معاً.

الفرع الثالث: الإصلاح إخراج داخلي إلى فضاء خارجي.

وهنا يبرز انتقال الفكرة من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر، وهذا يعكس استعارة أخرى: الفكر الداخلي يُخرج إلى الوجود الاجتماعي عبر الخطاب. وهذا ما يشرحه ريكور أيضاً حين يقول: «اللغة ليست مجرد لباس للفكر، بل هي مكان خروجه إلى الوجود المشترك.»²⁵

بهذا يظهر أن قاسم أمين يصوّر الفكرة الإصلاحية لا كخيار فكري عابر، بل كقوة حيّة نشأت داخل الفكر وفرضت على صاحبها أن يخرجها إلى فضاء عام، أي إلى خطاب يتوجه إلى المجتمع". وهكذا تتربط هذه الاستعارات الثلاث لتقدّم صورة متكاملة: فالعقل فضاء داخلي، تتحرك فيه فكرة حيّة تفرض ذاتها، ثم تنتقل عبر اللغة إلى فضاء علني مشترك، أي من حيز الفكر الفردي إلى حيز الخطاب الجماعي.

المطلب الرابع: استعارة العلم سلاح مزيف في خطاب الأقدمين.

قدّم قاسم أمين في تحرير المرأة مثلاً بارزاً على كيفية توظيف الاستعارة المجتمعية لتبرير الإقصاء. فقد درج الأقدمون على تصوير العلم كسلاح خطير إذا وضع في يد المرأة، بحجة أنه لا يزيدّها إلا تفتناً في المكر والخداع. غير أنّ أمين يعرض هذا التصور لا ليقرّه، بل ليكشف زيفه، ويبرهن أنّه مجرّد لِيٍّ للحقيقة وتحوير للعلم عن وجهته الأصلية، بما يخدم عقلية متسلطة متحجرة تعمل على هضم حقوق المرأة.

وتبرز الاستعارة المفهومية في خطاب قاسم أمين من خلال تصوير العلم كسلاح، غير أنه يعرض هذا التمثيل لا ليقّره، بل ليفكّكه ويكشف طابعه الزائف. فقد درج الأقدمون على اعتبار أن تعليم المرأة لا يزيدُها إلا مكرًا وخداعًا، فالعلم في نظرهم «سلاح جديد» تتقوى به طبيعتها على ارتكاب المفاسد. وقد عبّر أمين عن هذا التصور بوضوح قائلاً:

«رسخ في أذهان الرجال أن تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان، وقال الأقدمون في ذلك أقوالاً طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلو بها على نقصان عقل المرأة، واستعدادا للغش والحيلة. فلو تعلمت لم يفدها التعليم إلا براعة في الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة. فحذونا مثالهم واعتقدنا أن التعليم يزيد تفننها في المكر ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد»²⁶

تقوم هذه الرؤية على استعارة مركزية: (العلم = سلاح). غير أنه سلاح مزيف، يُعرض في الخطاب التقليدي بوصفه أداة إفساد لا إصلاح. وقد نبّه أمين إلى أن هذا التصور لا يعبر عن طبيعة العلم، بل عن تحوير مقصود للعلم عن وجهته الأصلية بما يخدم عقلية سلطوية متحجرة. ومن هنا فإن اللغة ذاتها تصبح أداة للهيمنة الاجتماعية؛ حيث يتحول الاستعاري إلى وسيلة لإقصاء المرأة عن المعرفة. ويبدو هذا بجلاء إذا استحضرنا ما قاله ابن حزم الأندلسي: «من منع العلم عن أهله فقد جار وظلم»²⁷ كما يؤكد ابن خلدون أن «المعارف والعلوم إنما هي وسيلة لاكتساب الملكات، والملكة صفة راسخة في النفس»²⁸ وهو ما ينسف الادعاء بأن التعليم يفسد المرأة، بل على العكس هو سبيل إلى تهذيبها وصقل طباعها. وقد شهدت الحاضرة المغاربية نشاط «المرأة ومساهمتها السياسية والفكرية والحضارية عامة»²⁹ وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن المرأة المتعلمة متى اسندت إليها مهام مختلفة في الحياة إلاّ وبرزت فيها تمامًا مثل الرجل.

- على المستوى التداولي، يقوم هذا الخطاب على استراتيجية التخويف (Fear Appeal)، حيث يُصوّر تعليم المرأة تهديدًا مباشرًا للأسرة والمجتمع. وهو ما أشار إليه

محمد عابد الجابري في قوله: «الثقافة التقليدية كانت تربط دوماً بين الجديد والمفسدة»³⁰.

- وعلى المستوى العرفاني، يوضح جورج لايكوف ومارك جونسون أن «الاستعارة ليست مجرد أسلوب بل هي أداة معرفية تُوجّه التفكير».³¹ فالخطاب التقليدي حين صوّر العلم بـ: «سلاح مزيّف»، كان يؤسس نموذجاً معرفياً يرى المرأة كـ: «عدو داخلي» يجب تجريدته من أدوات القوة. بالمقابل، أعاد أمين توجيه هذه الاستعارة، مبرزاً أن العلم هو قوة إصلاح وتمكين، لا أداة فساد. وفي السياق العربي المعاصر، يشير محمد الدروبي إلى أن «الاستعارة ليست فقط انعكاساً للثقافة بل أداة لإنتاجها وإعادة تشكيلها»³² وهو ما يفسّر كيف استطاع أمين قلب الاستعارة التقليدية لتصبح أداة تحررية تكسر قيود الهيمنة.

- خاتمة: لقد أظهر تحليل خطاب قاسم أمين في تحرير المرأة أنّ الاستعارة ليست مجرد عنصر بلاغي أو زخرف أسلوب، بل هي آلية معرفية وحجاجية مركزية شكّلت البنية العميقة لمشروعه الإصلاح. فمن خلال شبكة متكاملة من الاستعارات المفهومية استطاع أن يعيد صياغة صورة المرأة وموقعها في المجتمع، رابطاً بين تحررها الفردي ونهضة الأمة بأسرها. وقد بيّن المقال أنّ قاسم أمين بنى خطابه الإصلاح على ثلاث دوائر أساسية:

- الفضاء التصوري: حيث قُدِّمت الحرية كفضاء مفتوح للرأي والفكر، والتقدّم كحركة إلى الأمام، والجهل كمنحدر مظلم، وهي صور استعارية تجذّر قيم التنوير في إدراك المتلقي؛

- البنية الداخلية للفكر: إذ جُسِّد العقل كوعاء والأفكار ككائنات حيّة تتحرك وتفرض ذاتها، لتبرز عملية الإصلاح كتوليد داخلي ينتقل من حيّز الفكر الفردي إلى حيّز الخطاب الاجتماعي العلني؛

– تفكيك الاستعارة التقليدية: حيث تصدّى أمين لصورة "العلم سلاح مزيف في يد المرأة"، فكشف زيفها وأعاد توجيهها لتصبح أداة للتحرر والتمكين، لا وسيلة للتخويف والإقصاء؛

وبذلك يتضح أنّ الاستعارة في خطاب قاسم أمين ليست مجرد تزيين بلاغي، بل أداة لإعادة بناء المفاهيم المركزية (الحرية، التعليم، النهضة، الأمة) ومنح خطابه قوة التأثير والإقناع؛

إنّ إعادة قراءة تحرير المرأة في ضوء نظرية الاستعارة العرفية تكشف عن عمق استراتيجيته الخطابية، وكيف استطاع عبر اللغة أن ينقل قضية المرأة من مستوى "المطالبة بالحقوق" إلى مستوى "إعادة تشكيل النسق التصوري" للأمة بأكملها؛

ولعلّ القيمة المضافة لهذا التحليل تكمن في إبراز كيف أنّ خطاب أمين لم يكن حدثاً معزولاً في سياق النهضة، بل تجربة فكرية متجاوزة ما تزال صالحة لاستلهام النقاشات الراهنة حول الحرية، والعدالة الجندرية، وحق المرأة في المشاركة الكاملة في بناء المجتمع؛

ومن هنا، فإنّ الاستعارة في خطابه تكشف عن كونها أداة معرفية لإنتاج الوعي، ووسيلة عملية لتفكيك سلطة التجهيل وإرساء دعائم مشروع إصلاح يظل مفتوحاً على المستقبل.

الهوامش:

- (1) أحمد عبد السيد الصاوي: فن الاستعارة، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1979، ص112.
- (2) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، ط1، مطبعة مصطفى البابي، مصر، 1939، ص193.
- (3) يراجع: عبد الله الحراصي: دراسات في الاستعارة المفهومية، ط3، مؤسسة عمان للصحافة والانباء والنشر، مسقط، سلطنة عمان، 2002، ص13-14.
- (4) يراجع: جورج لايكوف ومارك جونسون: الاستعارات التي نحيها، تر: عبد المجيد جحفة، ط2، دار توبقال للنشر، المغرب، 2009، ص12.
- (5) جورج لايكوف ومارك جونسون: م س، ص12.
- (6) صفاء زغدي، (تعاونيد صد العقم وفكه والطقوس المرافقة لها-دراسة أنثروبولوجية)، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية (دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة)، مج07، ع2، جامعة حمة لخضر – الوادي- الجزائر، ماي2023، ص1205.
- (7) جورج لايكوف ومارك جونسون: م س، ص33.

- 8 (المدونة) = قاسم أمين: تحرير المرأة، ط1، سلسلة الأنيس موفم للنشر، الرغاية، الجزائر، 1988، ص3.
- 9 (يراجع: سليم حاج سعد، (الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية وأثرها على القضية الفلسطينية) مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية (دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة)، مج01، ع1، جامعة حمه لخضر — الوادي- الجزائر، جوان 2017، ص07.
- 10 جورج لايكوف ومارك جونسون: م س، ص33.
- 11 المدونة: ص05.
- 12 (بن صديق زوييدة، (عمل المرأة بين الضرورة والواقع)، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية (دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة)، مج04، ع1، جامعة حمه لخضر — الوادي- الجزائر، جوان 2020، ص576.
- 13 (يراجع: جورج لايكوف ومارك جونسون، م س، ص59-60
- 14 (بول ريكور: الزمان والسرد، تر: سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص123.
- 15 المدونة: ص05.
- 16 (يراجع: جورج لايكوف ومارك جونسون، م س
- 17 (سليم حاج سعد/التجاني مياطة، (التراث المادي واللامادي لقلعة بني راشد وسبل الحفاظ عليه)، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية (دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة)، مج07، ع خاص، جامعة حمه لخضر — الوادي- الجزائر، فيفري 2023، ص340.
- 18 (ابن سينا: الشفاء، قسم النفس، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1952، ص112.
- 19 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005، ص5.
- 20 (يراجع: أحمد مطلوب: في علم البيان(20 المدونة: ص05.
- 20 (يراجع: جورج لايكوف ومارك جونسون، م س
- 20 (سليم حاج سعد/التجاني مياطة، (التراث المادي واللامادي لقلعة بني راشد وسبل الحفاظ عليه)، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية (دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة)، مج07، ع خاص، جامعة حمه لخضر — الوادي- الجزائر، 356، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1982، ص77.
- 21 يراجع: جورج لايكوف ومارك جونسون، م س، ص66.
- 22 بول ريكور: الزمان والسرد، م س، ص121.
- 23 (الملاحظ: البيان والتبيين، تج: عبد السلام هارون، ج1، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر 1968، ص75.
- 24 أحمد مطلوب: في علم البيان، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1982، ص133.
- 25 بول ريكور: نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، تر: سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص47.
- 26 المدونة: ص37.
- 27 (أبو حامد الغزالي: م س، ص21.
- 28 (ابن خلدون: المقدمة، ط6، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص539.
- 29 (كينة ميلودة، أمعاء بن عمارة، (المرأة وحضورها الصوفي في الغرب الإسلامي-عائشة المنوبية أنموذجا)، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية (دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة)، مج01، ع1، جامعة حمه لخضر — الوادي- الجزائر، جوان 2017، ص50.
- 30 (محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1984، ص112.
- 31 جورج لايكوف ومارك جونسون، م س، ص07.
- 32 (محمد الدروبي: الاستعارة المفهومية، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2010، ص44.